النساء في الاسلام

للقاضي امير علي احد علماء الهند

من مقالة له انكليزية نشرت في الجزء الاخير من مجلة القرن التاسع عشر

لقد كان للنساء الاثر العظيم في تقدم الامم وارتقائها في كل الازمنة وبين كل الشعوب وكان هذا الاثر ظاهرًا معروفًا ولو لم يُعترَف به دائمًا . وهو يختلف باختلاف الاحوال ودرجات العمران ولكنهُ لم يتوقف على المساواة بين الجنسين فقد كان لبعض النساء اليونانيات الشأن العظيم في سياسة بلادهنَّ حين كانت منزلة المرأة دون منزلة الرجل فيها . واتصل الناس الى الاعتراف بالمساواة المطلقة بين الجنسين رويدًا رويدًا غير منقادين الى ذلك بشريعة دينية او قوانين بشرية بل بما اكسبهم اياهُ الارتقاء الادبي والمادي مدة قرون كثيرة من استنارة العقل وتهذُّب الاخلاق . على انهُ ما من مقياس يقاس به ارتقاء الامة مثل منزلة المرأة فيها . فاذا وقفت بجانب زوجها متمتعة بالحقوق كلها حرَّة مختارة لا كأمٍّ لاولادهِ مجردة عن كل صفة أُخرى بل كربَّة لبيتهِ — لا كدمية يسرُّ بالنظر اليها بل كشيرة لهُ وصديقة فحينئذٍ يقال ان الامة التي بلغت نسبة النساء الى الرجال فيها هذا المبلغ من الارتقاء قد صارت أمَّة مرتقية حقيقة . وما من امَّة يظهر صدق هذا القول في تاريخها ظهورهُ في تاريخ الامَّة العربيَّة كما قال صاحب "كتاب الارتقاء في عصر الخلفاء" فانهُ لما كانت الامة العربيَّة في اوج مجدها لما قبضت على السيف والقلم وكان لها فيهما القدح المعلَّى والعزَّة القعساء كانت نساؤها مثل رجالها بل كان الرجال يحترمون النساء احترامًا يقرب من العبادة . ولكن فساد الاخلاق الذي نتج عن فساد الاحكام قوَّى سلطة الدخلاء الذين جاؤوا الامة بكل ما يضعف عزائمها ويفسد اخلاقها فامَّحت صورة المرأة العربية الحرَّة الشمائل الابيَّة النفس وقامت مقامها صورة النساء المترفهات المتحجبات اللواتي اقتدين بقصيرات الروم والفرس في الترفُّه والترف والخمَّة والكسل

كان للمرأة شأن عظيم ومقام رفيع عند العرب وكانت لها في امور قومها كلمة نافذة فوق ما نظن كما ترى في قصة زوجة الحرث بن عوف سيد بني مرَّة التي اصلحت بين قبيلتي عبس وذبيان بعد ان كادتا تفنيان . ولكن لما جاء الاسلام كانت الاخلاق قد فسدت في مدائن العرب وكانت الحظايا والقيان قد تبوأن مكانًا رفيعًا وصار مقامهنَّ مثل مقام اسياسيا في اثينا . وقام اهل الخلاعة من المدن وساووا مغازلة نساء البداة ولو شبت نيران الحروب على اثر ذلك .

وقد سنّ النبي السنن لعلاج هذا الداء ووضع الاحكام لحفظ العفّة والصيانة. والقواعد التي توضع لمثل ذلك قلما يُفهَم المراد بها وكثيرًا ما تأتي على ضدّ ما وُضعت له ولكن قواعد نبي الاسلام من حيث مقام المرأة ومساواتها للرجل في الحقوق المدنية حفظت شهامة العرب وابقت المرأة في مقام رفيع الى عهد الخليفة القادر بالله. واستخدم العرب الخصيان في عهد معاوية آخذين ذلك عن الروم واقتبسوا نظام الحريم في عهد الوليد الاموي الثاني. وامر المتوكل "ان يرون العرب" بفصل النساء عن الرجال في الولائم والحفلات العمومية. ولكن بقي النساء يختلطن بالرجال الى اواخر المئة السادسة للهجرة وكنّ يقاتلن الزوّار ويعقدن مجالس الانس ويحضين الى الحرب لابسات الحديد ويساعدن اخوتهنّ وازواجهنّ في الدفاع عن القلاع والمعاقل. ولما اضمحلّ شان الخلفاء في اواسط المئة السابعة ومزّق التتار شمل الدول العربية قام العلماء يتجادلون في هل الاليق بالنساء ان يظهرن ايديهنّ او اقدامهن. ومن حين نشر الخليفة القادر بالله اوامره التي تدعو الى التأخّر ضعف شأن النساء في بلاد المسلمين عمومًا ولم يشتهر منهنّ بعد ذلك الاّ قليلات في ازمنة متفرقة بحسب ما اوتين من علو الهمّة وسعة الادراك

وكثيرًا ما اودى الحسّ الديني بالرجال الى احتقار النساء وقال اهل الزهد والتقشّف ان المرأة تقفل ابواب السعادة وتدسّ السمّ في كاس الرجال. واصدق من ذلك الحديث النبوي القائل ان "الجنة تحت اقدام الامهات". وما من احد بحث عن اصل الاديان الاّ ورأى امرأة عند ينبوع كل ديانة روحية تبثّ الحياة في ذويها. ولولا المرأة ما صار الاسلام قوّة حيّة فانهُ قبلما عرف النبي حقيقة ما دعي اليهِ — لما كان مرتابًا في حقيقة الاصوات التي كانت تناديهِ هل هي من الله او من الشيطان — لما كان في حالة اليأس والقنوط في ذلك الحين بادرت اليهِ زوجتهُ خديجة التي كان يحبها ويكرمها فطيّبت قلبهُ وشدّدت عزائمهُ. ثم لما قاوم اعتصاب ذويهِ عليهِ وبغضهم لهُ وقفت بجانبهِ هذه المراة الفاضلة ام المؤمنين وشاركتهُ في السرّاء والضرّاء بل كانت اول "من آمن بهِ حين شجرهُ كل احد

وبعدُ فقد اعتاد اهل الحضارة على اختلاف اجيالهم ان يجرّدوا من صفات النساء صورة كليّة بديعة يصفون بها المرأة الكاملة وهذا الذي دعا المسيحيين الى عبادة مريم العذراء ودعا المسلمين الى احلال بنت الرسول ارفع محل يبلغهُ كمال النساء. واكرامها لا يقتصر على الخاصة من اتباع ابيها بل يشمل جمهور العامة ولا سيما النساء منهم

فانهُ لما مات ابناء النبي اتجهت عواطفهُ كلها الى ابنتهِ فاطمة فتربّت وتعلّمت حتى صارت من طبقة اعلم الرجال بين قومها وكانت متصفة بالوداعة والانفة واقترن بها الامام علي وهي في

السادسة عشرة من عمرها. وكان حب هذين الزوجين المتبادل وحبهما كليهما لولديهما وحب النبي لبطليه مما تضرب به الامثال. وكانت تقوم بما يجب عليها من الاعمال البيتية وتجمع الصحابة والانصار رجالاً ونساء في دار بيتها او في المسجد وتقوم خطيبة فيهم بالوعظ والانذار. ولم يزل كثير من مواعظها محفوظاً حتى الآن وفيه من الدلالة على كرم الاخلاق وسمو الآداب ما يعود بالفخر على افضل النساء في كل زمان ومكان. ولقد كان الاسلام في اول عهده يحظر التوقف على اتباعه كما كانت النصرانية في اول عهدها وبقي بنو امية على ذلك ونساؤهم مقتديات بالزهراء في العفة والصيانة والاهتمام بشؤون بيوتهن يمثلن لعين الرائي في هدوهن ووقارهن واعتنائهن الدائم ببيوتهن العقيلات الروماليات او نساء الولايات الاميركية الشرقية المعروفة بنير انجلند. وكن يتقاطرن الى المساجد ليسمعن خطب الخلفاء والعلماء ويتعلمن الفقه والتفسير ويعلمن اولادهن كما تعلم ربيعة الرأي فان اباه خرج في البعوث الى خراسان ايام بني امية وهو حمل في بطن امه ثم عاد بعد سبع وعشرين سنة فوجده من العلماء الاعلام ووجد امه قد انفقت ماله كله على تعليمه

الا ان انتشار لواء العرب في المشارق والمغارب واستيلاءهم على افضل البقاع المعمورة وانهيال الثروة عليهم كل ذلك دعا الى توسيع معارفهم فلم يعد نساؤهم يقتصرون على مطالعة القواعد الشرعية والاحاديث النبوية بل درسن الشعر وفنون الادب وبرعن في ذلك وكن في خلافة الوليد وهشام ينظمن الشعر ويخطبن الخطب مثل اكبر الشعراء والخطباء. ولم يقتصر ذلك على نساء الخاصة بل تناول نساء العامة كما ترى فيما ذكره ابن خلكان في وفيات الاعيان واشتهرت حينئذٍ السيدة سكينة بنت الحسين بن فاطمة الزهراء. قال ابن خلكان انها كانت سيدة نساء عصرها ومن اجمل النساء واظرفهن واحسنهن اخلاقاً. وكانت قدوة النساء في ذلك العصر حتى انهن كن يتمثلن بها في لبسها وتصفيف شعرها ومن ذلك الطرة السكينية نسبة اليها (١)

ولم تقتصر السيدة سكينة على ان تكون مثالاً لنساء قومها في الازياء بل كانت مثالاً للرجال في الآداب والفضائل فكانت مجالس اجلة القوم ويجتمع اليها الشعراء والعلماء رجالاً

(١) قال مصعب كانت سكينة عقيلة مجالس الاجلة من قريش وتجمع اليها الشعراء وكانت ظريفة مزاحة وكانت احسن الناس شعرا وكانت تصفف جمتها تصفيفاً لم ير احسن منه حتى صارت تلك الجمة تسمى السكينة. ويظهر مما روى عن خروج السكينة في وجهها ولمها لاعني جمتها وانتقادها على الشعراء انها كانت من اكثر الناس جلداً واشدهم انفة واحراهم بفنون الانتقاد

ونساء وكانت دارها ناديًا لاهل الفضل. وجرى نساء عصرها على مثالها اقتداء بها وكانت تحيي مجالسها وتزيد بهجتها بظرفها ومزحها وكان خلفاء دمشق ينظرون بعين الصغيرة الى اولاد فاطمة ولا يعدّ لانهم كانوا يضعون العيون والارصاد على من يدخل بيت سكينة ولكن الناس لم ينثنوا عن حضور مجلسها فبقي الى آخريات ايامها عامرًا بالزوار من كل انحاء البلاد وهي تقابلهم وتسامرهم وتنعم عليهم بالاموال الطائلة ولا سيما اذا نظموا فاجادوا وقد تنقد اتوالهم نقدًا لطيفًا وتريهم مواقع الضعف فيها (كما فعلت مع الفرزدق وجرير او تثني عليهم بما هم اهله كما اثنت على كثيّر وجميل)

وكانت ام البنين زوجة الوليد بن عبد الملك الذي فُتحت اسبانيا في ايامه من صديقات سكينة المحببات بها وكان لها كلمة نافذة عند الوليد ورأي متّبع في سياسة بلاده وهي التي ساعدته على اجراء العدل والرأفة بالرعية. وكل ما فعله من الحسنات كان بايعاز منها (٢)

ونصح الحجاج للوليد مرةً ان لا يصغي الى مشورة زوجته ام البنين. وذكر لها الوليد ذلك فطلبت منه ان يستدعي الحجاج اليها فقابلته وعنفته على اسلوب يظهر منه شأن المرأة في الاسلام حينئذٍ وما كان لها من السلطة النافذة (٣)

---

(٢) قال جلال الدين السيوطي انه كان يحسن الايتام ويرتب لهم المؤدبين ويرتب للزمنى من يخدمهم وللاضراء من يتردهم وعمر المسجد النبوي ورزق الفقهاء والضعفاء والفقراء وحرّم عليهم سؤال الناس وفرض لهم ما يكفيهم

(٣) قال المسعودي في مروج الذهب - «دخل الوليد دارهُ وتفصل في خلالة (اي توشح القميص واحد) ثم اذن للحجاج فدخل وكان عليه درع وكنانة وقوس عربية واطال الجلوس عنده فبينما هو يحادثه اذ جاءت جارية فسارّت الوليد ومضت ثم عادت فسارّته ثم انصرفت فقال الوليد للحجاج اتدري ما قالت هذه يا ابا محمد قال لا قال بعثتها اليّ ابنة عمي ام البنين تقول ما بحالستك هذا الاعرابي المتسلخ وانت في خلالة فارسلت اليها انه الحجاج فراعها ذلك وقالت ما احب ان يخلو بك وقد قتل الخلق. فقال الحجاج يا امير المؤمنين دع عنك مماكهة النساء وزخرف القول فانما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة فلا تطلعهن على سرك ولا مكايدة عدوك وابائك وشاورهن في الامور فان رأيهن الى لين وعزمهن الى وهن ... ثم نهض فخرج ودخل الوليد على ام البنين فاخبرها بمقالة الحجاج فقالت يا امير المؤمنين احب ان تأمره غدًا بالتسليم عليّ فقال افعل. فلما غدا الحجاج على الوليد قال له يا ابا محمد سر الى ام البنين فسلم عليها. فقال اعفني من ذلك يا امير المؤمنين فقال لا بدّ من ذلك فمضى الحجاج اليها فحبسته طويلاً ثم اذنت له فاقرّته قائمًا ولم تأذن له في الجلوس. ثم قالت ابو يا حجاج الت المتن على امير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الاشعث اما والله لولا ان الله جعلك اهون (اصغر) خلقه ما ابتلاك بربي الكعبة ولا قتل ابن ذات النطاقين واول مولود ولد في الاسلام. واما ابن الاشعث فقد وفى عليك المراتب حتى لقد يا امير المؤمنين عبد الملك فانثالت باهل الشام وانت في اضيق من القرن فاطلقتك رماحهم وانجاك كفاحهم ولولا ذلك لكنت اذل من القد وأما امير المؤمنين فخير فاهل منك ما اشرت به عليه ولا

ولما كانت سكينة سائدة في الازياء والآداب كانت رابعة العدوية الصالحة المشهورة سائدة في البر والزهد وكان لها الشأن العظيم عند اهل الصلاح كما كان للاولى الشان العظيم عند ارباب الفنون والعلوم . ومما يدل على الانحطاط العلمي الذي تلا ذلك ان قبر رابعة بقي بظاهر القدس يزار واما قبر سكينة فكاد ينسى مكانهُ . واقوال رابعة واخبارها في الصلاح والزهد يتمثل بها وتشرح في كتب المحدثين واما تعمير سكينة بيوت العلم ومجالسها الادبية والشعرية فمن الآثار الثانية . ولما اطنب الخاقاني الشاعر الفارسي بمدح امير سماها رابعة اما سكينة واترابها من ربات العلوم اللواتي نبغن في صدر الاسلام فقلما ورد ذكرهن بعد خراب الزوراء

ذكرتُ ثلاثاً من النساء الممتازات سيفي عهد بني امية وكلٌّ منهنَّ تمثل طائفة من نساء عصرها والتفتُّ الآن الى عهد بني العباس الذي بلغت علوم المسلمين فيهِ اوج مجدها ثم انحطت منهُ الى الحضيض وفي عهدهم نشأ كثيرات من عقيلات النساء وتمن الفقه والحديث وكنَّ يقرئن في المدارس والبيوت . والامام الشافعي على جلالة قدره قرأ الفقه والحديث على اثنتين من هؤلاء النساء

ولا مشاحة في ان خلافة بني العباس عادت بالارتقاء العقلي والمادي فارتقت الممالك الاسلامية في عهدهم ارتقاء لم يسبق لهُ نظير وبقيت منزلة المرأة على حالها تقريباً الى ايام الخليفة الواثق . ذكر المسعودي في مروج الذهب ان ام سلمة تزوجت بابي العباس السفاح عن حب وشغف وكان مملقاً لا مال عندهُ ولا مطمع لهُ بالخلافة وقد لقب بالسفاح لتحكم بني امية وكان شديد الغضب ولكن ام سلمة "غلبت عليهِ غلبة شديدة حتى ما كان يقطع امراً الاَّ بمشورتها وبتأميرها" . ولما افضت الخلافة اليهِ لم يأخذ ضرة عليها

ويذكرني امر ام سلمة بالخيزران زوجة المهدي الثالث من الخلفاء العباسيين وما كان لها من السيادة عليهِ وعلى من في بلاطهِ فانها كانت عاقلة حازمة ماهرة في اساليب السياسة يقصدها الناس في حاجاتهم و يقفون ببابها من الامراء والوزراء والعلماء والشعراء بل كاد شعبها يعبدها لكرمها وحنوّها . وبوساطتها ردَّ المهدي الى بني امية املاكهم التي حبسها عنهم

مصغ الى نصيحتك . قاتل الله الشاعر وقد نظر الملك وسنان غزالة المحرورية بين كتبك حيث يقول

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة فرعاء تفزع من صفير الصافر
هلاَّ برزت الى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

اخرجها عني . فدخل الى الوليد من فوره فقال يا ابا محمد ما كنت فيهِ فقال والله يا امير المومنين ما سكنت حتى كان بطن الارض احب اليَّ من ظهرها » انتهى باختصار قليل ولعلة اختصار في الدخيل

ولكن المرأة التي كان لها الشهرة العظمى في ذلك العصر المشهور بكثرة عقائله زبيدة زوجة هرون الرشيد . تزوَّج بها في عهد خليفة المنصور فلما ولي الخلافة افصح للجوال لمواهبها وفضائلها وقد ابقت لها اطيب ذكر في قلوب المسلمين بجرها الماء الى مكة وبنائها مدينة الاسكندرونة بعد ان خربها الروم . وكانت اذا مضى زوجها لغزواته تكاتبهُ شعرًا . ولما مات ابنها الامين اختارت العزلة وحلَّت بوران زوجة المأمون محلها وهي فارسية الاصل فجمعت بين مهارة الفرس وانفة العرب ولم تبلغ مبلغ زبيدة من العلم ولكنها كانت سريعة الخاطر تقدر ذوي القرائح قدرهم فانشأت في بغداد المدارس والمستشفيات للنساء ووقفت عليها الاموال الطائلة . ومن الغريب ان هذه المرأة الفاضلة لا تذكر بظرفها وجمالها ولا بكرمها واحسانها بل بطعام استبطنهُ وينسب اليها . وقطر الندى زوجة المقتدر ووالدة المكتفي كانت عالمة متفقهة يجتمع في مجلسها النساء البارعات في فنون الادب وتجد منها المتجرات في العلوم الفقهية والمشهورات بالتقى صدرًا رحيبًا . ولما ولي ابنها الخلافة كان صغير السن فقبضت على ازمة المملكة في صغره وبقيت قابضة عليها بعد ان بلغ اشدَّهُ . وكانت تتصدر في مجلس المظالم وتقابل الوفود والسفراء محفوفة بوزراء المملكة ووجهائها وكان مجلسها غاصًّا بالرجال والنساء من كل من احلَّهُ مقامهُ او عليهُ الحضور فيهِ . وقد ساء الامام السيوطي ما كان لها من السلطة فكتب في القرن السادس عشر ما نصهُ

" وفي سنة ٣٠٦ تمَّ مارستان ام المقتدر وكان مبلغ النفقة فيهِ في العام سبعة آلاف دينار . وفيها صار الامر والنهي لحرم الخليفة ولنسائهِ لركاكتهِ وآل الامر الى ان امرت ام المقتدر بمثل القهرمانة ان تجلس للظلام وتنظر في رقاع الناس كل جمعة فكانت تجلس وتحضر القضاة والاعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها "

ولا بدَّ من ان يسأل سائل هل كان نساء الخلفاء وغيرهنَّ من النساء يبرزن ملتفات بالاكفان كالنساء الشرقيات في مدن المشرق الآن . ويظهر لي انهنَّ لم يكنَّ يلبسنَ غير النقاب يسترن بهِ وجوههنَّ كما تستتر نساء الاستانة الآن بالشمك فيخفي غضون الشيخوخة ويظهر جمال الصبا . اما البرقع الشامل للوشاح والنقاب والخمار فلم يشع الاَّ في اواخر عهد السلاجقة (في اواخر القرن الثاني عشر للميلاد) . واما الاحتجاب بالبردة على ما هو شائع الآن عند مسلمي الهند وغيرها من البلدان فلم يكن معروفًا في تلك العصور . والنساء من الطبقات العليا كنَّ يظهرن بين الرجال غير متبرقعات . قال الامير عثمان بن منقذ في تاريخ حياتهِ ان امهُ واخواتهِ كنَّ يحاربن الافرنج دفاعًا عن حصنهم في حروب الصليب وكنَّ يطفن

بين الجنود يقوّين عزائمهم ويفرقن عليهم الاسلحة. وخرجت اثنتان من بنات عم المنصور الى حرب الروم لابستين دروع الزرد. وقامت امرأة في عهد الرشيد وانضمّت الى الخوارج تحارب معهم[٤] وكانت نخر النساء تخطب في مساجد بغداد. وفاطمة ام الخير وفاطمة ام ابرهيم اليزداني تقرئان الرجال والنساء الحديث وعلم الكلام. والامام الشافعي سمع الحديث على السيدة نفيسة وصلت عليه لما مات

ومن حين امر الخليفة القادر بالله العباسي بمنع النساء من دخول المساجد والمدارس وكل مكان يجتمع فيه الرجال الاّ متبرقعات انحط شأن المرأة وابتدأ انحطاط الاسلام ولم يقم بعد ذلك من النساء الشهيرات الاّ قليلات في ازمنة متفرقة مثل زليخة بنت نظام الملك وزير ملكشاه وخديجة اخت صلاح الدين فقد كان لكل منهما شأنٌ في عصرها. والثانية وتلقب ست الشام انشأت المدارس في اماكن كثيرة ومدرستها في دمشق تنسب اليها. ومن هؤلاء الشهيرات ايضاً تركان خاتون زوجة ملكشاه فانها كانت تدبر املاكها وتتصدّر في مجالس مشيريها وتخرج للصيد راكبة[٥] وابنها السلطان سنجر كان من اعدل الملوك واكثرهم بذلاً للعطاء وقد ذكر الانوري اعمالهُ بالتفصيل اما اعمال زوجته فلا يذكر الاّ طرف منها في بطون الاوراق ويظهر منها انها كانت ترافق زوجها دائماً في غزواته وكانت معهُ لما واقع الاتراك الغز فدارت الدائرة عليه وأُخذ اسيرًا وأُسرت معهُ وماتت في الاسر ستأتي البقية

(٤) لعلهُ اراد ليلى بنت طريف اخت الوليد بن طريف. قال ابن الاثير لما قتل الوليد صحبتهم اخته ليلى مستعدّة عليها الدرع فجعلت تحمل على الناس وهي تترنم ترثي اخاها

يقل ثباتًا رسم قسير كأنهُ ... على علم فوق الجبال منيفر
تضمن جودًا حاتميًا وباسلاً ... وسورة مقدام وقلب حصيفر
الا قاتل الله الحجى كيف اضمرت ... فتىً كان بالمعروف غير عنيفر
فان يك أرداهُ يزيد بن مزيدر ... فقارب خيل فقدها وصفوفر
الا يا لقومي للنوائب والردى ... ودهر ملحّ بالكرام عنيفر
وللبدر من بين الكواكب قد سرى ... وللشمس هدت بعدهُ بكسوفر
فيا شجر الخابور مالك مورقًا ... كأنك لم تجزع على ابن طريفر
فتى لا يحب الزاد الاّ من التقى ... ولا المال الاّ من قنا وسيوفر
ولا الخيل الاّ كل جرداء شطبة ... وكل حصان بالبدين عروفر
فلا تجزعا يا ابني طريف فانني ... ارى الموت نزّالاً بكل شريفر
فقدناك فقدان الربيع فليتنا ... فديناك من دهانا بالوفر

(٥) ويؤخذ بما ذكرهُ ابن الاثير انها كتمت موت زوجها وبذلت الاموال للامراء سرًّا واستحلفتهم لابنها محمود وعمرهُ اربع سنوات وشهور وارسلت الى الخليفة المقتدي في الخطبة لولدها فاجابها وشرط ان يكون اسم السلطنة لولدها والخطبة له فلم ترضَ بذلك الاّ بعد ان افتاها الامام الغزالي بان الشرع لا يحيل ولاية ابنها لصغر سنهِ. وخرج كثيرون على ابنها فحاربتهم وقهرتهم وردتهم الى الطاعة